لم يكن اسمه يعني شيئًا، لا له، ولا للمدينة التي يسير في شوارعها كما لو أنه لا ينتمي إلى قانون الزمن. كان جسدًا يتحرّك، ولكن داخله... مجرّة من الأسئلة المُعلّقة بين طبقات الوعي، تُراكم ضجيجها في صمتٍ مطبق، كأن الصوت هناك ممنوعٌ بقرارٍ وجوديّ لا يُراجع.

كان يتساءل:
هل نحيا لأننا نريد، أم لأننا أُجبرنا على احتمال الحياة؟
وهل الأحلام امتدادٌ للرغبة، أم تمويهٌ لفكرة مستحيلة لا يمكن للعقل أن يتحمّلها في يقظته؟

المدينة من حوله لا تكفّ عن التثاؤب، كلّ شيء فيها يبدو كأنّه يُعاد للمرة الألف: الوجوه، الإشارات، حتى صرير الخطى. لكنه كان يرى، يرى العمق خلف القشرة، العطب خلف الزيف، وكان ذلك عبئًا أكثر من كونه بصيرة.

الليل، بالنسبة له، لم يكن وقتًا، بل كيانٌ رماديّ يلتهم ما تبقّى من هشاشة اليوم.
الناس، لم يكونوا بشرًا، بل ظلالًا تتقاطع ثم تمضي، دون أن تتلامس فعلًا.

لم يكن يكره الحياة، لكنه لم يُسلّم لها زمام روحه. كان يشعر أن ثمّة شيئًا ناقصًا، ليس في العالم، بل في إدراكه له. كأن الحقيقة لا تظهر إلا لمن يجيد الصمت الطويل، والإنصات لما لا يُقال.

في زاوية نائية من المكتبة القديمة، وجد كتابًا دون عنوان، مغلفًا بطبقة من الغبار والشك. فتحه. الكلمات كانت مألوفة، وكأنها تُقرأ من داخله، لا من الورق. جملة واحدة سكنت أعماقه:
"الطمأنينة لا تُكتسب من العالم، بل تُستدعى من داخلك حين تتصالح مع قصورك."

خرج من المكتبة وفي داخله صدى جديد. لم تكن إجابة، بل سكونٌ مختلف. كأن الأسئلة لا تحتاج إلى رد، بل إلى وعيٍ بوجودها.

مرت الأيام، ولم يتغيّر شيء في المدينة، لكن داخله تغيّر. لم يعد يرى الناس كظلال، بل كأنهم انعكاسات لأجزاء من روحه التي كان يظنها مكسورة.

ثم أدرك...
أنّ الحياة ليست انتظارًا لشيء أعظم، بل هي لحظة إدراك صامتة، يتجلّى فيها معنى الرحلة، لا نهايتها.

ابتسم، للمرة الأولى بلا سبب. ومشى.

لم يكن قد وجد الإجابة، لكنه صار يعرف كيف يحيا السؤال.

في المساء، وبينما كان يراقب انعكاس القمر على بركة ساكنة في أطراف الحديقة المهجورة، تساءل عن معنى النور، لا بكونه ضوءًا، بل كحالة داخلية قد تُستثار حين تنطفئ الفوضى.

رأى طفلاً يلعب وحيدًا، يركض خلف فراشة لا تكترث بمطاردته. تأمل المشهد كمن يرى رمزًا لا يُفك شيفرته بسهولة. ابتسم الطفل له، ابتسامة نقية بلا مرجعية ولا دافع. تلك اللحظة، شعر بشيء لم يعرفه منذ دهور... عفوية الشعور.

ثم عاد إلى منزله الصامت، جدرانه رمادية، ومصابيحه خافتة، لكنه شعر أنه ليس فارغًا هذه المرة. جلس على كرسيه المعتاد، وفتح دفترًا جديدًا. لم يبدأ بكتابة الأسئلة، بل سطر واحد فقط:

"الحقيقة لا تُقال، بل تُعاش."

وفي الليلة التالية، سمع الأذان يتسلل إلى قلبه لا أذنه، شعر بخشوعٍ لم يختبره من قبل. كان صوت الأذان أشبه بنداء داخلي، لا خارجي. أدرك حينها أن اليقين لا يأتي بصرخة، بل بطمأنينة تزحف على أطراف الروح. توضأ للمرة الأولى منذ زمن، لا بدافع العادة، بل برغبة التطهر من عبء التيه.

سجد، وفي السجود... شعر أنه للمرة الأولى لم يعد يسأل.
لم يعد بحاجة لأن يعرف كل شيء.
كان كافيًا أن يشعر بأنه ليس وحده.

وهو في سجوده، سالت دمعة بلا صوت.
لا تشبه الضعف، بل كأنها ختمٌ لرحلة طويلة من العبور بين الظلال

ر م